التراث المخطوط في بجاية بين الماضي والحاضر



› ليندة شقرة

يشكل التراث الفكري الذي خلفته لنا الحضارة الإسلامية على امتداد تاريخها الطويل، وعلى اتساع الرقعة التي بسطت عليها نفوذها، أعظم ذخيرة فكرية مما خلفته أية حضارة أخرى في العالم، وهو بذلك يمثل حصيلة النشاط العقلي للأمة خلال عصور نهضتها. ويتميز هذا التراث بشموليته ووحدة مكوناته، كما يتميز بالثراء والأصالة في كل ما تطرق إليه من فنون وعلوم، ونحن لا نبالغ إذا اعتبرنا التراث الإسلامي الوحيد الذي استمر في أن يكون مطلبا للمسلمين، يمارسونه في كل زمان ومكان فقد حرص المسلمون على حفظ ونشر المعرفة من خلال الكتب، بأبدعوا في صناعتها وإخراجها في شكل قريب جدا من الكتاب المطبوع، وبالرغم من بدأ حركة الطباعة فإنها لم تحقق للقارئ العربي، ماعهده في الكتاب المخطوط من براعة التجليد وتألق الألوان وجمال الخط، الذي بقيت تقاليده إلى أواخر القرن الماضي، والذي وجد منه المسلمون أحسن مجال لإنفجار قدراتهم الفنية هي الشاهد على ثبات الذوق الفني في حضارة طاولت الزمن، ويؤكد ذلك ما قاله الأستاذ عبد الوهاب من أن التاريخ العام لم يعرف شعبا كان له ما للأمة الإسلامية من العناية بالكتب، والحرص على اقتنائها ونسخها والمحافظة عليها.

والحديث عن التراث الفكري الإسلامي، يدفعنا إلى التذكير بإسهام المغاربة على غرار المشارقة في هذا الشأن، فقد ظهرت بوادر التدوين والتأليف وجمع الكتب منذ أول دولة إسلامية ظهرت فوق تراب المغرب الأوسط. وقد شكلت بجاية أحد العواصم الإسلامية البارزة، ومركز إشعاع حضاري خلال عصور نهضتها بالمنطقة، ونحن نجد من أطلالها الباقية مؤشر لفترة مزدهرة من حياتها الدينية والمدنية والعسكرية، والتي شكلت وعاءا لنمو وازدهار الحركة الفكرية بها، فبرز من علمائها من ساهم بإنتاجه الفكري في نقل وإثراء التراث الإسلامي. لذلك رأينا في دراسة هذه الفترة من تاريخ بجاية ضرورة حضارية من أجل التعرف على تراث علمائها، والإطلاع على جوانبه الباطنة والظاهرة، ويعد هدفا من أهداف هذه الدراسة تحفيز المنشغلين بهذا المجال إلى دراسته وإحيائه، وجعله في متناول الأجيال القادمة سالما من التلف والضياع، وليس في ذلك تخلف أو رجوع إلى الوراء كما يعتقد البعض، بل مسعى حضاري نسعى من خلاله إلى وصل الماضي بالحاضر.

الحركة الفكرية ببجاية

بالرغم من كل ما قيل أو كتب عن هذه الفترة من تاريخ بجاية الفكري، فإنها ما تزال تتحدى جهود الباحثين، وذلك لقلة الوثائق وندرتها أو لتناقض ما جاء فيها. وقد إلتمسنا هذه الصعوبة عند إجرائنا لهذه الدراسة، فلجأنا إلى تتبع الآثار الباقية للمدينة سواء ما هو ثابت من بقايا العمران أو ما هو منقول كالتحف والمخطوطات، ومحاولة الربط بينها لإتصالها الوثيق بالنواحي الإقتصادية والإجتماعية والفكرية. ونحن

‹‹‹

نجد فيما بقي لنا من آثار المدينة مؤشرا ماديا لمعالم الحضارة وشاهدا ماثلا على فترة مزدهرة من تاريخها الإقتصادي والسياسي والعمراني، فقد وصفها صاحب الاستبصار بأنها مدينة أزلية على نظر عظيم، كثير الزرع والخيرات وأنها مبنية على نمط المدن الإسلامية فيما يتعلق بالتحصينات العسكرية، مما يوحي بنمو الفن العمراني، فقدم إليها الناس من كل الأقطار المعمورة برا وبحرا حبا في جمالها وبحثا عن الأمان، وكانت المدينة تنعم بالرخاء والإزدهار الاقتصادي والتجاري وقد ساعد موقعها البحري تجارها على ترويج منتوجاتهم خارج المدينة إلى بلاد المشرق وأوروبا، كما شكل هذا الموقع منفذ نجاة للمهاجرين الأندلسيين الذين حملوا معهم معالم حضارتهم من علوم وفنون وصناعات، وبذلك ساهموا في تطورها وثرائها فأصبحت المدينة في فترة وجيزة مركز إشعاع حضاري متكامل المعالم هيئ لنو وازدهار الحركة الفكرية والعلمية بها. وقد ساعدت في ذلك عدة عوامل يمكن حصرها في النقاط التالية :

-1 ابتعاد المنطقة عن الصراعات، أعطى أرضية قوية لتنقل العلماء الذين توافدوا عليها من كل الأقطار حاملين معهم علومهم وخزائن كتبهم فأتاحوا بذلك لكثير من طلاب العلم الإطلاع على دخائرها والنهل من علومها المختلفة.

-2 ساهمت هجرة بعض الطلبة لطلب العلم أو أداء فريضة الحج على نقل وإثراء التراث الفكري الأدبي والعلمي، كما كان الشراء من أهم الطرق للحصول على الكتب.

-3 لم يكن الطلبة في هذا العصر يستنكون من طلب العلم ولو بعد بلوغ المرتبة العليا في التحصيل فكانوا يكثرون من مجالسة العلماء والأدباء ومذاكرتهم ومحادثتهم.

-4 شكلت المدارس القرآنية وكذا المكتبات الملحقة بالمساجد مركزا للنشاط الدراسي، كما تميز بعض علماء هذه الفترة بتخليهم عن الطريقة التقليدية في تلقين العلوم واعتمادهم طريقة الحوار والمناقشة مما يدل على تقدم أساليب التعليم والتي كانت لها نتائجها الفعالة في ازدهار الحركة الفكرية.

-5 كان تزويد المدارس والمكتبات بالكتب يتم بواسطة الأوقاف وكذا عملية النسخ فساعد ذلك على انتشار الكتب وتداولها بين الناس والطلبة وبذلك تطور الخط فأصبح يراع فيه الأداء الجيد، والوضوح والدقة والضبط فاحترفها العديد من البجائيين، ويعد أحمد التليلي أحدهم فقد وصفه الورتيلاني في رحلته بأنه كان فريد عصره وزمانه بديع الخط، سريع اليد فيه.

-6 تهافت البجائين على جمع الكتب في بيوتهم حتى أصبح وجود المكتبة في البيت أمرا متمما لتأثيثه وتزينه ولو لم يكن صاحبه من أهل العلم وإذا كان ذلك حال الخاصة فإن العلماء قد أقبلوا على اقتناء الكتب فأصبح لدى كل عالم مكتبة مليئة بعيون التراث والمعرفة، وذهب بعض هؤلاء إلى وقف مكتباتهم على المساجد وبذلك تحول المسجد إلى مكان للدرس والتحصيل.

-7 إزدهرت حركة الوراقة وهو ما يعرف بمفهومنا الحالي بالنشر فساعد ذلك على توفر الكتب ورواجها بين الناس.

ولا شك في أن كل ذلك ساعد على انتشار التعليم والميل للقراءة والكتابة، فظهرت طبقة من المثقفين الذين قرأو مختلف الفنون وتأثروبها فاكتسبوا مقدرة على التأليف فألفوا بدورهم في مختلف الفنون المعرفة في الحضارة الإسلامية، وإذا حكمنا من التراث المكتوب فإن مساهمة المؤلفين البجائين في الفنون تكاد تكون معدومة، أما في العلوم فإن مساهمتهم طيبة ولكنها لم تبلغ مبلغ تأليفهم في العلوم اللغوية والشرعية لإرتباطها بالدين الإسلامي.

وعلى هذا النحو خلفت بجاية نهضة فكرية وعلمية لا يستهان بها، وقد تجمع معظم هذا التراث لدى الكثير من الأسر والأفراد الذين عرفوا بميلهم للعلم. كما كان نصيب المكتبات الملحقة بالمساجد وفيرا من هذا التراث، وبالرغم من وفرته إلا أن معظمه قد تعرض للإتلاف والضياع وقد ساهمت في ذلك الهجمات المتتالية على المدينة والتي استهدفت السيطرة عليها واستغلال خيراتها، مما تسبب في اختلال النظام الإجتماعي وانهيار قواعده، فغادر البلاد القادرون من أبنائها، وتقلص ظل العلوم والآداب والفنون خاصة بعد الهجرات الجماعية للعلماء، الذين فروا بدينهم حاملين معهم مكتباتهم الثمنية التي استقرت باستقرارهم إما في المشرق أو المغرب، والذي تركوه خلفهم أتلفته الحروب وأصابته يد العابثين من صيادي المخطوطات ومحبي جمع الوثائق، لتنتقل بعد ذلك إلى ما وراء البحر إلى مختلف المكتبات الأجنبية، وبذلك استطاع الغرب أن يمتلك من تراثنا المخطوط عددا هاما.

وفي الحقيقة أن بجاية لم تعد كل علمائها من عاشوا تلك الفترة المؤلمة، إذ أن كثيرا منهم لم يبارح الوطن واختار الإقامة على الغربة، لكننا لا نعلم من خبر هؤلاء إلا القليل النادر فلم يصل إلينا من إنتاجهم إلا النزر من التراث، ولم يبرز للعيان وبقي مخفيا بين دفات المخطوطات، ترى ماهي الوضعية الحقيقة لهذا التراث، وهل يلقى الرعاية الكافية والكفيلة بحفظه وصيانته وجعله في متناول الأجيال القادمة سالما؟؟

وضعية التراث المخطوط ببجاية

ليس بالأمر الهين الحصول على تصور شامل للوضع الراهن للتراث الفكري، مع تحديد أماكن تواجده ببجاية، وذلك لقلة الدراسات الأكادمية والبحوث، ولهذا اعتمدنا على المعلومات التي حصلنا عليها من الباحثين، الذين أخذوا على عاتقهم مهمة البحث عن المخطوطات الموجودة ببجاية، وقد خلصنا من خلالها إلى الملاحظات التالية:

-1 معظم التراث الفكري قد أتلف بفعل الحروب والخراب، كما وجدت يد العابثين طريقها إليه فعملت على إتلافه أو نقله إلى الخارج، وما تبقى منه تجمع لدى الأسر والأفراد وهم يحرسون عليه باعتباره ميراث ثمين خلفه لهم أسلافهم. فيعلمون على ترتيبه وحفظه وفهرسته بطرق غير مقننة.

-2 من الصعب إحصاء هذا التراث بشكل دقيق، فليس هناك حتى الآن سجلا كاملا بالمخطوطات التي هي بحوزة الأفراد والأسر، إذ لم يشملها أي نوع من أنواع الحصر، كما أنه لم يحضى بالدراسات الأكادمية التي تتناول جوانبه الفنية (نوع الخط، الزخارف، نوع الورق...).

-3 لم يحظ التراث البجائي بالضبط البلوغرافي [الفهرسة] فنحن نفتقد للقوائم والفهارس التي تطلعنا على محتواه العلمي. فقد تسرب معظم هذا التراث خارج المنطقة، دون أن نعلم إذا ما كان موجودا بالجزائر أو خارجها، وزاد الوضع سوءا غياب قانون وطني يحمي هذا التراث.

4 ـ ساعدت الظروف التاريخية لتجعل من الزوايا مكانا لحفظ وخزن التراث الفكري، ولأنه أثر من آثار الشيخ فقد اتخذ طابع التقديس، فلا يسمح للغرباء بالاطلاع عليه إلا نادرا.

5 ـ معظم هذا التراث يعاني الإهمال، فهو مجمع داخل غرف تخلوا من التهوية والنظافة، بالإضافة إلى ما توفره العوامل المناخية من ظروف غير مناسبة لحفظه كالحرارة والرطوبة. وبهذا فهو معرض للآفات والحشرات التي وجدت من المخطوطات مادة غذائية مناسبة لنموها، لما توفره من مواد كربوهيدرائية متمثلة في اللواصق والبرديات والجلود القديمة. وبذلك

تعمل على إتلافها. ويظهر التلف على شكل بقع بنية اللون، وتمزقات وثقوب موجودة على الهوامش والنصوص، أو في شكل قرض رأسي للكعوب، كما أنه لم يراع في وضع الكتب أبسط الأسس العلمية، بحيث وضعت داخل صناديق والضخمة منها فوق الكتب الصغيرة الحجم، وكذلك الكتب المتلفة مع الكتب السليمة مما يسبب انتقال العدوى وبالتالي اتلافها.

وبهذا نلمس بوضوح الوضع الأليم الذي وصلت إليه المخطوطات ببجاية، فهي لا تلقى أي نوع من الرعاية الكافية لحمايتها سواءا في جوانب صيانتها وترميم مما يستوجب من المختصين وكذا المشرفين عليها، إلتفاته جديدة وجادة لإعادة النظر في مفهوم حفظ التراث، بحيث تقوم هذه النظرة على اعتبار أن النص هو المادة التي تعني الباحث، والتي تحتاج إلى عناية متخصصة، إلى جانب الشكل المادي وما يمثله من فنون فهو وثيقة أثرية يجب الحفاظ عليها وفق الأسس العلمية، ولن يتحقق ذلك إلا بتوفير الإمكانات المادية والكفاءات البشرية المتخصصة، التي تكفل لهذا التراث الحماية والرعاية المادية والثقافية.

في الختام نشر إلى الدور الذي يمكن أن تحققه سياسة محددة المعالم، واضحة الأهداف، من أجل إنقاذ هذا التراث من الفوضى التي يعاني منها وتضعه على أول الطريق، لجمعه وتسجليه ■

قائمة المخطوطات لمؤلفين بجائيين بالمكتبة الوطنية الجزائرية «مصلحة المخطوطات»

تمهيدا لنشره والتعريف به، وهو مسعى تفرضه علينا تبعاتنا إزاء مجدنا الفكري.

رقم الطلب	عنوان المخطوط	المؤلف
ح 36 ت	قصيدة	أبو بكر الزواوي
4/ 2445	حاشية على أم البراهين	أبو بكر الزواوي
2505 4/ 2695 3259 3266	مختصر عمدة البيان	عبد الرحمان الصباغ
1/ 2677 1/ 2694	معالم الاستبصار	محمد بن علي الزواوي الشلاطي
3140	شرح العقيدة	محمد بن مزيان الزواوي
1/ 3286	رسالة في النحو	محمد بن القاسم بو جليلي
4/ 3286	تحفة الصدور في أعمال الصحيح مع الكسور	محمد بن سعيد بن مالك الزواوي
7/ 3286	قراءة ورش	محمد بن عنتر البتروني
3 / 747	الصرح المشيد	عبد القادر بن محمد القريشي
2 / 722	الفتوحات الواهبات	عبد القادر بن محمد القريشي